القصص

من صور الحياة — قصة واقعية

ظمأ الروح

« مهداة الى : H. M »

للأستاذ عبد الحليم عباسى .

كان فتى خيالى النزعة ، أغرته هذه الأفكار السوداوية ، فاندفع فيها ، لا يرى أن الحياة تتسع لغير هذا الشقاء يعلق بها من مفتتحها الى حيث الحد بين الدنيا والآخرة ، ومضى تعبث الكآبة بناضر شبابه ، الى أن غدا وهو فى ميعة العمر ، ناحلَ القدّ ، حائل اللون ، رطبَ الجفن كأنما عَلِق به أثر من أدمع البارحة .. واذا ما أُصغيتَ اليه وهو يتحدث أسرتك هذه الغُنَّة فى صوته ، وهذا العمقُ فى أفكاره ، ورحتَ تعجب كيف يستطيعُ هذا الظلُّ حمل كل هذه الشجون ؟ .

عرفته فى بلدة الجمال — الشام — فقامت بيننا صداقةٌ موثَّقة العقد ، متينة الأواصر ، يشوبها الاجلالُ من جانبى ، والرثاء من جانبه ، فقد كنت فى نظره واحداً من هذه الملايين التى تتعثر بآمالها ، وتتمرمر بأمانيها ، وغبرنا على هذا زمناً الى أن فرقت بيننا دواعى الحياة ، وبقى خالداً فى فكرى ، خالداً فى روحى ، ومضت سنون لم تتلاق فيها ، الى أن جاءنى منه هذه الرسالة أثبتها للقارىء ، ففيها قصة طريفة :

ياصديقى :

ما كنت أظن أن كلامك يكون جداً وأنت تهزل ، فلقد اعترضتنى هذه — الحنية — التى شد ما حدثتنى عنها ، واستطاعت أن تلامس حياتى بعصا سحرها ، فتغير منها . . ثم تمر بأناملها الجميلة على أجفانى فأغدو أبصر وأرى أن هذا الوجود ينطوى على أشياء كثيرة جميلة .

. . . وتفصيل الخبر أنى هبطت هذا البلد ، وشدتنى اليه ضرورات لا أستطيع الافلات منها ، ومرت الأيام والشهور متشاكلة متشابهة ، وقد كنت لا أزال أسعر فى كآبتى ، وأتخبط فى مآتى أشجانى ، حتى كان يوم التقيا بهذه الناجرة ، فكأنما بُعثت خلقاً جديداً ، واستطاعت أن تنقى حياتى من كل هذه الأفكار الشائكة . . . فلقد كانت تكبرنى بأعوام ، وكانت تكبرنى بهذه الأفكار نقتها التجارب وأخلصتها من كل خطل ، وشاء الدهر الساخر أن يكون بين أبى وزوجها علاقة . . . وزوجها هذا — غفر الله له — ليس له ميزة من علم أو جاه . غير هذا الجاه الرخيص الذى تبعثه المادة ، وهو يجمع بعد الى قبح الجهل ، دمامة الشكل ، وسمح لى أن أتردد الى بيته ، وراقه أن يجد أن زياراتى تبعث فى زوجه روح الغبطة والسرور ، فينفض فرعها الذابل ، وتدب الحياة فى روحها الرازح تحت هذا الألم الحبيس الذى يعج فى صدرها . . . وكأنه كان يشعر أن بينه وبينها عدا فارق العمر ، تبايناً فى الروح والفكر . .

وكنت أشعر وأنا أتردد اليها أنى أقاد الى الهاوية ، فهذا الصوت الهادىء المتزن ، يعيد اليك ذكرى لذة غابرة ، وهذه العين غرق فى صفائها تتازل النور ، محال أن يقوى على تدانيها روح يتعشق الجمال . . . ولقد كنت قادراً على أن أكتمها حبى ، وما حاجتى الى الافضاء به ، وأنا لا أطلب أكثر من أن أجلس اليها ساعات ترفه عن روحى ، وتغذى مشاعرى ، غير أنا فى احدى جلساتنا ، وقد تشعب بنا الحديث ، وأخذت علينا الغبطة يقظات الارادة ، سمعت صرخات روحى فى داخل البدن . . . أننى فى حاجة الى الامتزاج بها ، الى الفناء فى ذاتها ، وكأنها أحست بما أحسست به فالتحمنا بالنظر .

وقالت عينها ، لاحاجة الى الثورة — إنى أحبك —
فأجابت روحى من عينى — وأنا أحبك —
ولكنّ عينها عادت فقالت إنى أحتقر ملذات البدن ، فلا تطمع بها ، فقلت وأنا أحتقرها ، لقد مللتها ، إن روحى هى الصادية.
وفى تلك الجلسة أعلنت لها حبى ، وباحت لى بمثله . . .

* * *

ومن ذلك الحين ، أصبحت لا أقوى على فراقها ، ولا أطيق الأبتعاد عنها دقيقة ، ولقد تعاظم أو تضاءل الوجود — لاأدرى — فأصبحت هى كل شىء فيه ، واستقرّ حبها فى أعماق ناراً ، فغدوت بجانبها أحترق .

ومرت الأيام مفعمة بالهناءة ، فكنا نلتقى كل يوم ، لاأرتوى من هذه الكلمات تندّ عن هذه الشفاه الجميلة ، ولااشبع من النظر الى هذا المحيا الذى يبعث اليك فى كل لحةٍ فكرة تحمل معانى الرضى عن الحياة . . .

وأشهد أن جمالها أدنانى كثيراً من حمى الله . . وارتفع بنفسى الى عالم أندى من عالمنا هذا ، يرى منه الانسان مبلغ ما تتردى فيه الخلائق من سخافات ، ومبلغ ماتنطوى عليه البشرية من حماقة .

وكنا نتخير من الأمكنة أهدأها ، ونهرب بسعادتنا بعيدين عن الضوضاء والصخب ، وكأنها وهى ترقى القمم ، أو تنساب معى الى الوادى دُنيا من الفتنة تتحرك . . على أن هذه التشابيه والصور كانت تجيش بنفسى ولاأجرؤ على إسماعها إياها . . . فهى لا تسمح لى أن أصور تموجات النسائم على غدائرها ، ولا كيف تفتضح الموسيقى والشعر ، قبالة ضحكتها وبسمتها ، ولقد سألتها مرة عن سر هذا الأمتعاض ، فقالت : ذلك أن الجمال ليس فى الشكل ، وإنما هو فيما وراءه . . . على أن فى كلامك غلواً ، قلت : نعم ولا ، الجمال فيما وراء الأشباح ، وليس فى كلامى غلواً ، وكذا أنتِ ترين أن جمالك أمثلُ من أن نتطاول الى وصفه ، فصمتت ثم قالت : دع هذا وخذ فى غيره .

قلت : فليكن فقد يجرُّ الى ما أخذنا على أنفسنا العهد بالابتعاد عنه . . . ثم تأخذ الحديث بلباقة وتديره على الوجه الذى تريد ، مبتعدة فيه عن كل مامن شأنه أن يستثير فيك هذا الذى يطمع فيه عباد البدن . وهى إذ تحدثك لاتجهد فى إقناعك ، بل تلق الفكرة موجزة واضحة ، ثم تتركك تتخيل ، وتقيس وتقارن ، ولك أن توافقها أو تخالفها فهذا ليس بالشىء المهم ، وإنما المهم أن تفكر ! .

* * *

شارف العام أن ينتهى ، وأنا لاأزال فى غمرة حبها أنمو جسماً ، وأنمو فكراً وإحساساً ، أصبحت شغلى الشاغل ، لقد لهوت عن العالم ، ونسيت أن به خلائق يعزُّ عليها أن ترى ألّا فتى تمتزج بالمحبة ، وتلتحم بالروح ، حتى كان اليوم الذى سحق فيه قلبى ، وتحطمت كأس سعادتى ، فقد جئتها فى عصاراه كالعادة ، لنذهب الى نزهة اتفقنا عليها ، فجلست إليها ريثما تنهى عملها ، وتصلح من شأنها ، ولكنى أوجست خيفة ، وأنا ألاحظ عليها أثر اضطراب تحاول جهدها إخفاءه ، ثم رأيتها تتحفز للكلام ، وبعد لأى استطاعت أن تجمع شتيت إرادتها فقالت :

إصغ الىّ . . . . قلت : كلى آذان . . . .

قالت : أو لم تسمع ؟ . . لقد أكلتنا الألسنة ! .

قلت : لاأدرى ماتقصدين ؟ قالت : ستدرى . إن هذه البشرية المتمرغة بالخسة ، المتهافتة على الساقط من اللذة ، لاترى من الممكن أن تقوم علاقةٌ بين متحابين ، لا تمت الى هذه الأسباب الدنيا ، ولا تنبع من هذه المنابع الآسنة التى منها يستقون علاقاتهم.

قلت ، وقد قام بنفسى أن أدارى ألم الصدمة : ليكن هذا ظنهم وصنائعهم ، فما تصاحبنا لبذل فى الخلق .

فوجمت قليلاً ، ثم قالت : ليس عن غباوة تتكلم ، وعاجلتها دموعها ، وقد والله ياصاح رأيت أنواعاً من الدمع ، فما رأيت أشجى ولا أبعث للأسى من دموع هذه الحسناء البريئة المظلومة ، إنها بهذه القطرات تحاول أن تستنطق العناصر وتستشهدها على طهرها وظلم الانسان .

قلت : هونى عليك أو بلغ الأمر الى هذا الحد ؟ ! . . .

قالت : أجل ! ومن حين وأنا أكتمك إياه ، وزوجى وأقرباؤه لقد طلبوا منى أن اقطع معك هذه العلاقات ، انهم يرونها خطراً على كرامة الأسرة ، وغداً يسافر بى الى بلد ناءٍ كتم عنى اسمه وإخاله لن يعود إلا متى رحلت ! ! . . .

[البقية فى أسفل الصفحة التالية]